

سورة «الكافرون»

وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة. ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك^(١). وهي ست آيات.

وفي الترمذي من حديث أنس: «أنها تعدل ثلث القرآن»^(٢). وفي كتاب «الرد» لأبي بكر الأنباري: أخبرنا عبد الله بن ناجية، قال: حدثنا يوسف، قال: حدثنا القعني وأبو نعيم، عن موسى بن وزدان، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن»^(٣). ورواه موقوفاً عن أنس.

وخرج الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد عن ابن عمر قال: صلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الفجر في سفر، فقرأ: «﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾» و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم قال: «قرأت بكم ثلث القرآن ورُبَّعه»^(٤).

وروى جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال: «أتحبُّ يا جبيرُ إذا خرجتَ سفرًا أن تكون من أمثل أصحابك هيئةً وأكثرهم زاداً؟» قلتُ: نعم. قال: «فاقرأ هذه السورَ الخمسَ؛ من أول «قل يا أيها الكافرون - إلى - قل أعودُ بربِّ الناس»، وافتتحَ قراءتك بيسم الله الرحمن الرحيم». قال: فوالله لقد كنتُ غنياً^(٥) كثير المال، إذا سافرتُ أكونُ أبدهم هيئةً، وأقلهم زاداً، فمذ قرأتهم صرتُ من أحسنهم هيئةً، وأكثرهم زاداً، حتى أرجع من سفري ذلك»^(٦).

وقال فروة بن نوفل الأشجعي: قال رجل للنبي ﷺ: أوصني. قال: «اقرأ عند

(١) النكت والعيون ٦/٣٥٧.

(٢) لم نقف على هذا الحديث، والذي في سنن الترمذي: ربع القرآن، وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣) و(٢٨٩٥)، وسلف ص ١٤٦ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٨٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد ٧/٢٥٨ و٢٦٠.

(٥) في النسخ: غير، والمثبت من المصادر.

(٦) أخرجه أبو يعلى (٧٤١٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٣٤: رواه أبو يعلى وفيه من لم أعرفهم. وذكره الحافظ في المطالب العالية ٣/٣٩٨، والسيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠٦ ونسبه لأبي يعلى.

منامك ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ فإنها براءة من الشرك». خرّجه أبو بكر الأنباري وغيره^(١). وقال ابن عباس: ليس في القرآن أشدّ غيظاً لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك.

وقال الأصمعي: كان يقال لـ ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ المقشِقشتان، أي: أنهما تُبرئان من النفاق. وقال أبو عبيدة: كما يُقشِقشُ الهناء الجربَ فيبرئُهُ. وقال ابن السكيت: يقال لِلقَرَحِ وَالجُدْرِي إِذَا بَيْسَ وَتَقَرَّفَ، وَلِلجَرَبِ فِي الإِبِلِ إِذَا قَفَلَ: قَدْ تَوَسَّفَ جِلْدُهُ، وَتَقَشَّرَ جِلْدُهُ، وَتَقَشَّقَشَ جِلْدُهُ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤

ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس: أن سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب^(٣)، وأمّية بن خلف؛ لقوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هلّمّ فلتعبد ما نعبد، ونعبد ما تعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كلّه، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لو استلمت بعض هذه الآلهة لصدقتناك، فنزل جبريل على النبي ﷺ بهذه السورة، فيسوا منه، وأدوه، وأدوا

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٠٧)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي بعد الحديث (٣٤٠٣) بنحوه. والرجل الذي قال النبي ﷺ: أوصني، هو نوفل الأشجعي أبو فروة رضي الله عنهما.

(٢) الصحاح (قشش).

(٣) في النسخ والنكت والعيون ٦/٣٥٧ (والكلام منه دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما): الأسود بن عبد المطلب، والخبر في السيرة النبوية ١/٣٦٢، وأسباب النزول للواحد ص ٥٠٥ - دون نسبة - وتفسير الطبري ٢٤/٧٠٣، وتاريخ الطبري ٢/٣٣٧ ونسبه لسعيد بن مينا. والمثبت من هذه المصادر.

أصحابه^(١). والألف واللام ترجع إلى معنى المعهود وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لأي؛ لأنها مخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سيموت على كُفْره، فهي من الخُصوص الذي جاء بلفظ العموم. ونحوه عن الماوردي^(٢): نزلت جواباً، وعنى بالكافرين قوماً مُعَيَّنِينَ، لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمنَ فعبد الله، ومنهم من مات أو قُتِل على كُفْره، وهم المُخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون.

قال أبو بكر بن الأنباري: وقرأ من طعن في القرآن: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَا أُعْبَدُ مَا تَعْبُدُونَ» وزعم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراءً على رب العالمين، وتضعيفٌ لمعنى هذه السورة، وإبطالاً ما قصده الله من أن يُذَلَّ نبيُّه المشركين^(٣) بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزري^(٤)، وإلزامهم ما يأنف منه كلُّ ذي لُبٍّ وحبِّجاء. وذلك أن الذي يدعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفهم. فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا: يا أيها الكافرون، دليلٌ صحة هذا: أن العربي إذا قال لمخاطبه: قل لزيد: أُقْبِلْ إلينا، فمعناه: قل لزيد: يا زيد، أُقْبِلْ إلينا. فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغ معنى؛ إذ كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا^(٥) يعتمدهم في ناديم، فيقول لهم: «يا أيها الكافرون» وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى الكُفر، ويُدخلوا في جُملة أهله إلا وهو محروسٌ ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يدٌ، أو تقع به من جهتهم أذية. فمن لم يقرأ «قُلْ يا أيها الكافرون» كما أنزلها الله، أسقط آيةً لرسول الله ﷺ. وسبيلُ أهل الإسلام ألا يُسارعوا إلى مثلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه التي منحه الله إياها، وشرَّفه بها.

وأما وجه التكرار فقد قيل: إنه للتأكيد في قَطْعِ أطماعهم؛ كما تقول: والله، لا

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر - كما في الدر المنثور ٤٠٤/٦ - وذكره البغوي في تفسيره ٥٣٥/٤ دون نسبة.

(٢) في النكت والعيون ٣٥٧/٦.

(٣) في (م): للمشركين، والمثبت من النسخ الخطية.

(٤) في (د): الرديء.

(٥) قوله: لا، ليس في (د) و(م).

أفعلُ كذا، ثم والله لا أفعله.

قال أكثرُ أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز^(١)؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء إلى شيء، أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد؛ قال الله تعالى: ﴿فِي آيَاتِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . تُو كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبا: ٤-٥] ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]. كل هذا على التأكيد.

وقد يقول القائل: إزمِ إزمِ، اعجلْ اعجلْ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «فلا آذنُ، ثم لا آذنُ، إنما فاطمة بضعة مني» خرَّجه مسلم^(٢). وقال الشاعر:

هَلَا سَأَلْتَ جَمُوعَ كِنْدٍ دَةَ يَوْمٍ وَلَسُوا أَيْنَ أَيْنَا^(٣)

وقال آخر:

يَا لَبَكْرٍ أَنْشِرُوا لِي كُؤْلِيَا يَا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارِ^(٤)

وقال آخر:

يَا عُلْقَمَةَ يَا عُلْقَمَةَ يَا عُلْقَمَةَ خَيْرَ تَمِيمٍ كُؤْلَهَا وَأَحْرَمَةَ^(٥)

وقال آخر:

يَا أَقْرَعُ بَنَ حَابِسٍ يَا أَقْرَعُ إِنَّكَ إِنْ يُضْرَعُ أَخُوكَ تُضْرَعُ^(٦)

وقال آخر:

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٥ .

(٢) في صحيحه (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (١٨٩٢٦).

(٣) البيت لقبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص ١٤٢ .

(٤) البيت لمهلل، وهو في الكتاب ٢/ ٢١٥، والخزانة ٢/ ١٦٢ .

(٥) لم نقف على قائله، وذكره السمين الحلبي في الدر المصون ١١/ ١٣٣ .

(٦) سلف ٥/ ٢٨٢ .

أَلَا يَا اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثَلَاثُ تَحِيَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تَكَلِّمِي^(١)
ومثله كثير. وقيل: هذا على مطابقة قولهم: تَعْبُدُ آلِهَتَنَا وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ، ثم تعبد آلِهَتَنَا
ونعبد إلهك، ثم تعبد آلِهَتَنَا وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ، فنجري على هذا أبداً سَنَةً وَسَنَةً. فأجيبوا عن
كل ما قالوه بضدّه؛ أي: إِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ أَبَدًا.

قال ابن عباس: قالت قريش للنبي ﷺ: نحن نُعْطِيكَ مِنَ الْمَالِ مَا تَكُونُ بِهِ أَغْنَى
رَجُلٍ بِمَكَّةَ، وَنَزَوَّجُكَ مَنْ شِئْتَ، وَنَطَأُ عَقَبَكَ - أي: نَمْشِي خَلْفَكَ - وَتَكْفُفُ عَنْ شَتْمِ
آلِهَتِنَا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَنَحْنُ نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً هِيَ لَنَا وَلكِ صِلَاحٌ؛ تَعْبُدُ
آلِهَتِنَا: اللات والعزى سنة، ونحن نعبد إلهك سنة؛ فنزلت السورة^(٢). فكان التكرار
في «لا أعبد ما تعبدون»؛ لأن القوم كرّروا عليه مقالهم مرّة بعد مرّة. والله أعلم.

وقيل: إنما كرّر بمعنى التخليط. وقيل: أي: «لا أعبد» الساعة «ما تعبدون. ولا
أنتم عابدون» الساعة «ما أعبد». ثم قال: «ولا أنا عابد» في المستقبل «ما عبدتم. ولا
أنتم» في المستقبل «عابدون ما أعبد». قاله الأخفش والمبرد^(٣).

وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملّوا وثناً، وسَمِعُوا الْعِبَادَةَ لَهُ رَفَضُوهُ، ثُمَّ
أَخَذُوا وَثَنًا غَيْرَهُ بِشَهْوَةِ نَفْسِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِحِجَارَةٍ تُعْجِبُهُمْ أَلْقَوْا هَذِهِ، وَرَفَعُوا تِلْكَ،
فَعَظَّمُوهَا وَنَصَبُوهَا آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا، فَأَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: «لَا أَعْبُدُ
مَا تَعْبُدُونَ» الْيَوْمَ مِنْ هَذِهِ الْأَلِهَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ. ثم قال: «ولا أنتم عابدون ما أعبد»
وانما تعبدون الوثن الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن «ولا أنا عابد ما عبدتم» أي:
بالأمس من الآلهة التي رفضتموها، وأقبلتم على هذه. «ولا أنتم عابدون ما أعبد»
فإني أعبد إلهي.

وقيل: إنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» فِي
الاسْتِقْبَالِ. وَقَوْلُهُ: «وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ» عَلَى نَفْيِ الْعِبَادَةِ مِنْهُ لِمَا عَبَدُوا فِي

(١) البيت لحُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ الْهَلَالِيِّ، وَهُوَ فِي يَوَانِهِ ص ١٣٣، وَفِيهِ: بَلَى فَاَسْلَمِي، بَدَلُ: أَلَا يَا اسْلَمِي.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٧٠٣/٢٤.

(٣) قَوْلُ الْأَخْفَشِ ذَكَرَهُ الْمَوَارِدِيُّ فِي النِّكَتِ وَالْعِيُونَ ٣٥٨/٥، وَأَبُو حِيَانَ فِي الْبَحْرِ ٥٢١/٨. وَقَوْلُ
الْمَبْرَدِ ذَكَرَهُ النَّحَّاسُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٣٠١/٥.

الماضي. ثم قال: «ولا أنتم عابِدون ما أعبد» على التكرير في اللفظ دون المعنى، من قِبَل أن التقابل يُوجب أن يكون: ولا أنتم عابِدون ما عَبَدْتُ، فَعَدَلَ عن لفظ عَبَدْتُ إلى أَعْبُدُ، إشعاراً بأنَّ ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل، مع أن الماضي والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر. وأكثر ما يأتي ذلك في أخبار الله عز وجل.

وقال: «ما أعبدُ»، ولم يقل: مَنْ أَعْبُدُ؛ ليقابل به «ولا أنا عابِدُ ما عبدتم» وهي أصنامٌ وأوثان، ولا يصلح فيها إلا «ما» دون «مَنْ» فحُمِلَ الأوَّل على الثاني، ليتقابل الكلام ولا يتنافى^(١). وقد جاءت «ما» لمن يعقل، ومنه قولهم: سبحان ما سخرَكُنَّ لنا. وقيل: إنَّ معنى الآيات وتقديرها: قل: يا أيها الكافرون، لا أَعْبُدُ الأصنامَ التي تعبدونها، ولا أنتم عابِدون الله عز وجل الذي أَعْبُدُهُ؛ لإشراككم به، واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين. فأنا لا أَعْبُدُ ما عبدتم، أي: مثلَ عبادتكم، ف «ما» مصدرية. وكذلك «ولا أنتم عابِدون ما أَعْبُدُ» مصدرية أيضاً؛ معناه: ولا أنتم عابِدون مثلَ عبادتي التي هي توحيدُه سبحانه وتعالى، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

فيه معنى التهديد؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] أي: إن رَضِيتُمْ بدينكم، فقد رَضِينَا بديننا. وكان هذا قبلَ الأمر بالقتال، فَنُسِخَ بآية السيف. وقيل: السورة كُلُّها منسوخة. وقيل: ما نُسِخَ منها شيء لأنها خبر^(٢). ومعنى «لکم دینکم» أي: جزاء دينكم، ولي جزاء ديني. وسمي دينهم ديناً، لأنهم اعتقدوه وتولَّوه. وقيل: المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدين الجزاء.

وفتح الياء من «ولي دين» نافع، والبيزي عن ابن كثير باختلاف عنه، وهشام عن

(١) النكت والعيون ٣٥٨/٥.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ١٥٤/٣ - ١٥٥، وزاد المسير ٢٥٤/٩.

ابن عامر، وحفص عن عاصم^(١). وأثبت الياء في «ديني» في الحاليين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب^(٢)؛ قالوا: لأنها اسم مثل الكاف في دينكم، والتاء في قمت. الباقون بغير ياء، مثل قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: ٥٠] ونحوه، اكتفاءً بالكسرة، واتباعاً لخط المصحف؛ فإنه وقع فيه بغير ياء.

تفسير سورة «النصر»

وهي مدنية بإجماع. وتسمى سورة «التوديع»^(٣). وهي ثلاث آيات. وهي آخر سورة نزلت جميعاً؛ قاله ابن عباس في «صحيح» مسلم^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ①

النصر: العون؛ مأخوذاً من قولهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها، ومنع^(٥) من قحطها. قال الشاعر:

إذا انسلخ الشهر الحرام فودّعي بلاد تميم وانصري أرض عامر^(٦)
ويروى:

إذا دخل الشهر الحرام فجاوزي بلاد تميم وانصري أرض عامر^(٧)
يقال: نصره على عدوه ينصره نصراً، أي: أعانه. والاسم النصرة. واستنصره على عدوه: أي: سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضهم بعضاً.

(١) السبعة ص ٦٩٩ ، والتيسير ص ٢٢٥ .

(٢) قراءة يعقوب في النشر ٢/٤٠٤ .

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٣٢/١٥٥ .

(٤) الحديث (٣٠٢٤).

(٥) لفظ: ومنع، ليس في (م). والكلام من النكت والعيون ٥/٣٥٩ .

(٦) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص ١٣٣ ، وسلف ٢/٨٠ .

(٧) هذه رواية الجوهري في الصحاح (نصر) والكلام منه.